النقد الثقافي

(Cultural Criticism)

في دلالته العامة يمكن القول إن النقد الثقافي، كما يوحي اسمه، نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها. وبهذا المعنى يمكن القول إن النقد الثقافي نقد عرفته ثقافات كثيرة، ومنها الثقافة العربية قديما وحديثا. غير أن تطور هذا الميدان من النشاط ونشاط البحث في التعرف عليه هو ما تكاد تحتكره الثقافة الغربية، التي تشكل حالياً المرجعية الرئيسة للتعرف على سماته ومراحل تطوره، مثلما أنها عامل تأثير أساسي في تطور مثل هذا اللون من النشاط البحثي في غيرها من الثقافات. وحين تطور ذلك النقد في الثقافة الغربية فإنه لم يتطور كمنهج في البحث أو يتبلور على شكل تيار ذي سمات واضحة، وإنما ظل نشاطاً عائماً تدخل تحت مظلته ألوان مختلفة من الملاحظات والأفكار والنظريات.

يعود ظهور النقد الثقافي في أوروبا، حسب تقدير بعض الباحثين، إلى القرن الثامن عشر. غير أن بعض التغيرات الحديثة، لاسيما مع مجيء النصف الثاني من القرن العشرين، أخذت تكسبه سمات محددة على المستويين المعرفي والمنهجي لتفصله من ثم عن غيره من ألوان النقد وبالقدر الذي استدعى الإشارة إليه، مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، بوصفه لوناً مستقلاً من ألوان البحث. وقد تطور الأمر بأحد الباحثين الأمريكيين المعاصرين وهو فنسنت ليتش إلى الدعوة إلى «نقد ثقافي ما بعد بنيوي» ليقوم بدور مفقود، حسب رأيه، في ميادين البحث المعاصرة. على أن من اللافت أنه على الرغم من مثل هذه المساعي وتواتر الإشارة إلى هذا اللون من النقد وشيوع ممارسته في الغرب قديماً وحديثاً، فإن مصطلح «النقد الثقافي» ظل بعيداً عن ذلك القدر والمستوى من التقعيد والتنظير الذي أثر في تبلور اتجاهات أخرى، وما يزال بعض المعاجم المختصة لا يشير إليه. فهو مثلاً غائب عن عدد من المعاجم النقدية، ومنها المعجم المختص بالجانب الثقافي من النقد: «معجم النظرية الثقافية

والنقدية» *A Dictionary of Cultural and Critical Theory* الصادر عام 1996م. بل إن ليتش نفسه، الذي ألف فيه كتاباً عام 1992م لم يوله اهتماماً في المدخل الموسع الذي كتبه لـ «الدراسات الثقافية» ضمن المجلد الذي أصدرته جامعة جونز هوبكنز للنظرية والنقد الأدبي عام 1994م.

إحدى الإشارات المبكرة والمهمة إلى النقد الثقافي ترد في مقالة شهيرة للمفكر الألماني اليهودي تيودور أدورنو تعود إلى 1949 عنوانها «النقد الثقافي والمجتمع». وفي المقالة هجوم على ذلك اللون من النشاط، الذي يربطه الكاتب بالثقافة الأوروبية عند نهاية القرن التاسع عشر، بوصفه نقداً بورجوازياً يمثل مسلمات الثقافة السائدة ببعدها عن الروح الحقيقية للنقد وما فيها من نزوع سلطوي للسائد والمقبول عند الأكثرية. على أن هجوم أدورنو، الذي شاركه فيه عديد من المفكرين والنقاد ذوي الانتماء اليهودي، كان في المقام الأول على الثقافة الغربية في ألمانيا بوجه خاص، بوصفها

متسامحة مع النزوع التآمري ضد الأقليات وذوي الاتجاهات الثقافية المختلفة من جماعات وأفراد. في مفتتح مقالته يشير أدورنو إلى توجه النقد الثقافي إلى نقد الحضارة الغربية، ثم يؤكد تناقض هذا النقد لأن الناقد جزء مما ينتقد: «الناقد الثقافي غير راض عن الحضارة التي يدين لها بعدم ارتياحه. إنه يتحدث كما لو كان ينتمي إلى طبيعة لم يصبها الدنس، أو إلى مرحلة تاريخية أرقى، مع أنه ينتمي إلى الجوهر الذي يتخيل نفسه متجاوزاً له» ثم يشير في مواضع تالية إلى مشكلات أخرى منها إشاعة مفهوم مزيف للحرية، والتعامل مع الثقافة كما لو كانت مجموعة من السلع والقيم التجارية. ثم يتضح في نهاية المقالة موقف أدورنو الشامل من الثقافة الغربية نفسها وكونه ينطق من زاوية متحيزة إزاء تلك الثقافة بوصفه يهودياً. ففي النهاية ترد عبارته الشهيرة بخصوص علاقة اليهود بالنازية لاسيما المحرقة (الهولوكوست)، حيث يقول: «يجد النقد الثقافي نفسه في مواجهة المرحلة الأخيرة من جدلية الثقافة والبربرية. إن كتابة الشعر بعد أوشفتز [إحدى معسكرات اعتقال اليهود وإعدامهم في ألمانيا النازية] عمل بربري».

دلالة أدورنو على النقد الثقافي هي نفسها، على ما يبدو، التي تتضمنها إشارة يورغن هابرماس، الفيلسوف الألماني وزميل أدورنو في مدرسة فرانكفورت في النصف الأول من القرن العشرين، في كتاب بعنوان: **المحافظون الجدد: النقد الثقافي والحوار التاريخي**. ذلك أن هابرماس لم يعن بتعريف المفهوم واكتفي بدلالة شائعة كتلك التي تضمنتها مقالة أدورنو. كما أن من الأعمال التي تتكئ على دلالة عامة وغير محددة للنقد الثقافي دراسة مهمة للمؤرخ الأمريكي هيدن وايت بعنوان: **بلاغيات الخطاب: مقالات في النقد الثقافي** (1978م) يشير فيه إلى أن الخطابات الموظفة في العلوم الإنسانية تقوم على بلاغيات لا تختلف كثيراً عما يعتمد عليه الأدب. وواضح أنه اعتبر تحليله لذلك التداخل الخطابي نوعاً من النقد الثقافي.

العمل الأكثر اتصالاً بالموضوع من الناحية المنهجية والاصطلاحية جاء في جزأين عنوان الأول منهما: **كلاسيكيات النقد الثقافي** (1990م). وفي مقدمة ذلك الجزء يشير المحرر إلى أن النقد الثقافي في بريطانيا، الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، تطور مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين ليتصل بالنشاط الاستعماري للإمبراطورية البريطانية: «لقد ادعى [أي النقد الثقافي] لنفسه مسؤولية تشكيل ثقافة قومية عامة على نحو شكل نقطة إحالة مرجعية للتنافس الاستعماري حوالي 1900م وما بعدها». ثم يشير إلى اكتساب النقد الثقافي رؤية جماعية تناهض التنظير وتتحيز ضد المثقفين، إلى أن تحولت هذه السمات إلى مقاربات إمبيريقية مادية شائعة وتناغم اجتماعي كاد يتحول إلى نوع من الإقليمية. ذلك ما يشهد به، في رأي الباحث، نتاج عدد من النقاد والكتاب البريطانيين المعروفين مثل: فرجينيا وولف ود. هـ. لورنس، و ت. س. إليوت (ذي الأصل الأمريكي). فلدى أولئك «فرضيات إمبيريقية وفردية مشتركة من النوع الذي نجده في ما أسماه ناقد مثل ف. ر. ليفيز 'التقليد العظيم' وسعى لبنائه بحماسة شديدة». ولم يكسر استمرارية تلك الفرضيات، في رأي محرر الكتاب المشار إليه، إلا جهود المفكرين الماركسيين من أمثال ريموند وليامز، أحد أشهر الذين كتبوا عن الثقافة وأسسوا لما بات يعرف بـ**الدراسات الثقافية**.

يقول فنسنت ليتش إن **الدراسات الثقافية** حركة طارئة على تاريخ طويل من النقد الثقافي: «يعد التشكل الحديث نسبياً للدراسات الثقافية، لاسيما في بريطانيا خلال السبعينيات من القرن العشرين، لحظة تمأسس وازدهار بارزة في التاريخ الطويل للنقد الثقافي . . .». ذلك التاريخ، يقول الناقد الأمريكي، تعرض لمعوق كبير متمثلاً في

الشكلانية أو النقد الشكلاني وما يقاربها من اتجاهات أخرى، كمدرسة شيكاغو (الأرسطية الجديدة)، ما بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين بحرصهما على قراءة النص من الداخل والتقيد بحدوده الشكلية، أي عدم الدخول في أية مسائل تتصل بالثقافة خارج النص عموماً. ويرى ليتش أن الإعاقة لم تأت من دراسة الأدب في تلك الاتجاهات الشكلانية، أي في كونها تمارس نقداً أدبياً، وإنما في تقييدها للنقد الأدبي بحيث لا يخرج عن أطر الأدب، وذلك هو ما جاءت مرحلة **ما بعد البنيوية** لتنقضه.

في تحديده لطبيعة العلاقة بين النقد الأدبي والثقافي يشير ليتش إلى أن النقدين مختلفان، ولكنهما يشتركان في بعض الاهتمامات: «يمكن لمثقفي الأدب أن يقوموا بالنقد الثقافي دون أن يتخلوا عن اهتماماتهم الأدبية»، غير أن المشكلة تكمن في أن بعض المهتمين بالدراسات الثقافية في الجامعات يصرون على الفصل بينهما، فيقولون إن «على النقد الثقافي أن يركز على الثقافة الشعبية والجماهيرية ويتخلى عن دراسة الأدب وما يتعلق به من خطاب ونظرية أدبية، بوصف تلك الحقول الأدبية محدودة ومتعالية.» ثم يوضح ليتش أنه لا يتفق مع القائلين بالفصل: «لا أعتقد أن للدراسات الثقافية أولوية على الدراسات الأدبية» (ويلاحظ هنا أن ليتش يتحدث عن الدراسات الثقافية والنقد الثقافي بوصفهما شيئاً واحداً في الأساس).

النقد الثقافي الذي يدعو إليه ليتش نقد يستوعب متغيرات مابعد البنيوية برفضها للعقلانية التنويرية وعدم اكتراثها بالتوجهات الأساسوية (أي التي تؤمن بوجود أسس

مطلقة لأي شيء) أو بالحدود التقليدية بين التخصصات والموضوعات أو ما هو **معتمد** أو رسمي في الثقافة. ثم يحدد معالم النقد الذي يدعو إليه، فيذكر ثلاثة معالم: (1) أن اهتمام النقد الثقافي لا يقتصر على الأدب **المعتمد**؛ و(2) أنه يعتمد على نقد الثقافة وتحليل النشاط المؤسسي بالإضافة إلى اعتماده على المناهج النقدية التقليدية؛ و (3)، وهي أبرز سماته، أنه يعتمد على مناهج مستقاة من اتجاهات ما بعد البنيوية كما تتمثل في أعمال باحثين مثل: بارت و دريدا و فوكو.

النقد الثقافي في العالم العربي

إذا فهمنا النقد الثقافي بمعناه العام، وليس بالمعنى ما بعد البنيوي الذي يقترحه ليتش، ورأينا الثقافة بوصفها مرادفة للحضارة (كما يدعو إلى ذلك بعض المفكرين) فإنه يمكن الحديث عن كثير من النقد الذي قدمه الكتاب العرب منذ منتصف القرن التاسع عشر بوصفه نقداً ثقافياً، أي بوصفه استكشافاً لتكوين الثقافة العربية وتقويماً لها. يصدق

ذلك على ما كتب في مجالات التاريخ والنقد الأدبي والاجتماع والسياسة وغيرها مما يتماس مع الثقافة ويشكل نقداً لها. فما كتبه طه حسين في كتاب **في الشعر الجاهلي**، أو في **مستقبل الثقافة في مصر** نقد ثقافي، مثلاً، وكذلك كثيراً مما نشره العقاد وجماعة الديوان وبعض المهجريين، ثم نقد أدونيس في **الثابت والمتحول**، بل وكتابات بعض الباحثين المعاصرين كعبدالله العروي ومحمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن، وهشام جعيط، وفهمي جدعان وعلي حرب ومحمود أمين العالم، وكثير غير ذلك مما يصعب إحصاؤه. كما يندرج ضمن النقد الثقافي ما أسماه هشام شرابي بـ «النقد الحضاري» في كتاب له بهذا العنوان (أنظر: **البطريركية**)، وما دعا إليه ناقد مثل شكري عياد من نقد حضاري أيضاً، وما قدمه باحث مثل عبدالوهاب المسيري في مجال التحيز (أنظر مداخل مثل: **التأصيل والتحيز**).

غير أن المحاولة الوحيدة المعروفة حتى الآن لتبني «النقد الثقافي» بمفهومه الغربي بشكل مباشر هي محاولة عبد الله الغذامي في كتاب بعنوان: **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية** (2000م). ومحاولة الغذامي تمثل مسعى جاداً لاستكشاف مشكلات عميقة في الثقافة العربية من خلال أدوات النقد الثقافي وهي من ثم جديرة بوقفة أطول. ولعل أول ما يلاحظ هو أن المؤلف اعتمد في محاولته على ليتش بشكل خاص، وإن أورد في بداية كتابه عرضاً لبعض تطورات الفكر الغربي النقدي ما بعد البنيوي مما يتصل بالنقد الثقافي ومما يمكن اعتباره سياقاً غربياً للكتاب، مع أن من

تفاصيل ذلك العرض ما لا يتضح للقارئ مدى صلته بمحور اهتمام المؤلف، وهو نقد الشعر العربي بوصفه مكمناً لأنساق الثقافة العربية.

يعرف الغذامي الأنساق الثقافية بقوله: إنها «أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائماً». وهي أنساق تظهر في كيفية استهلاك المنتج الثقافي العربي منذ القدم، مما يجعل النقد الثقافي نوعاً من نقد التلقي أو **استجابة القارئ**: «تأتي وظيفة النقد الثقافي من كونه نظرية في نقد المستهلك الثقافي . . . وحينما نقول ذلك فإننا نعني أن لحظة الفعل هي في عملية الاستهلاك، أي الاستقبال الجماهيري والقبول القرائي لخطاب ما. . .». غير أن الملاحظ هو أن معظم تحليلات الكتاب تتمحور حول تأثير الأنساق في عملية إنتاج الشعر أكثر من تمحورها حول أنماط تلقيه، مما يدفع بالمؤلف إلى تذكير القارئ في مرحلة متأخرة من كتابه إلى أن الإبداع ليس المكان الوحيد لاشتغال النسق، وكأن ذلك هو منطقة بحث النقد الثقافي أصلاً: «إن من المهم أن نشير هنا إلى أن النسق لا يتحرك على مستوى الإبداع فحسب، بل إن القراءة والاستقبال لهما دور

مهم وخطير في ترسيخ النسق». يضاف إلى ذلك أن المؤلف لا يوضح كيف يكون النسق تاريخياً وأزلياً في الوقت نفسه، فالتاريخ مقيد والأزل غير ذلك.

غير أن الملاحظة الرئيسة على محاولة الغذامي تأتي على ثلاثة مستويات: الأول في مقدار التعميمية في قراءة الأنساق التي يتحدث عنها، وهي أنساق محصورة في الجانب السلبي (تحول المديح إلى استجداء ونفاق، والفخر إلى تضخم للذات، الخ)؛ والثاني، بمحدودية الأمثلة، وانحصارها في الأدب تقريباً، والشعر بشكل خاص؛ أما الثالث فيتمثل في غياب المقارنة الثقافية أو استحضار التجارب الثقافية لمجتمعات مختلفة أو حضارات مختلفة. فمع أن في الكتاب شواهد كثيرة وقوية فيما يتعلق بأطروحة الكتاب، فإن فيه أيضاً كثيراً من التعميم القائم على تغييب الكثير من النماذج الشعرية التي تخالف النسق الذي يرسمه للشعراء الرسميين «المنافقين» في تاريخ الثقافة العربية، كالشعراء الصعاليك، والمتصوفة، وشعراء مثل: أبو نواس، وبشار، وابن الرومي، وأبو العتاهية. أضف إلى ذلك أنه يفترض في نقد ثقافي أن يتجاوز حدود الأدب ليضرب مثالاً لتجذر الأنساق أو «أزليتها» من حقول ثقافية خارج الأدب، كالفلسفة والعلوم الإسلامية، والتاريخ والجغرافيا والعلوم البحتة. هل فكر أولئك كلهم بنفس الطريقة النسقية؟ هل كان ابن رشد والغزالي والرازي والطبري وياقوت وغيرهم محكومين بالفحولة والذاتية والنفاق، الخ؟ أم أن النقد الثقافي ليس سوى نقد أدبي فحسب؟

ويقع كتاب **النقد الثقافي** في مشكلة آخرى حين يصدر عن اعتقاد المؤلف أن المشكلات التي يحددها محصورة في الثقافة العربية، وهي ليست كذلك. فتكسب الشعراء معروف في ثقافات كثيرة، بل لعلها السمة الثقافية في مراحل تاريخية تسود فيها نظم اقتصادية واجتماعية معينة عرفتها أوروبا كما عرفتها شعوب الشرق، مع ما يصاحب المديح من نفاق وكذب الخ. وقد عرفت إنجلترا، مثلاً، ولفترات طويلة من تاريخها شعراء يعيشون على ممدوحيهم ويكتبون لهم وينافقونهم. وإحدى مشكلات محاولة الغذامي هي في تهميشها للظروف التاريخية كمعين على فهم التاريخ. فالمسألة هنا هي نقد أخلاقي إلى حد كبير، كما أنه نقد منفك عن الظروف التاريخية، ولم يفد من مفاهيم كالقطيعة المعرفية عند فوكو، أو ما أضافه الماركسيون مثل ألتوسير ممن يشير إليهم الفصل الأول. هذا مع أن في الكتاب ثروة من الشواهد التي كان يمكن أن تغني طرحاً نظرياً أكثر تدقيقاً ومنهجية.

يضاف إلى ذلك أن بعض الأمثلة التي ساقها المؤلف غير دقيقة، كما في نقده الحاد لأدونيس بوصفه شكلانياً لا يأبه للمعنى: «وهو يصر على شكلانية الحداثة ولفظيتها، مع عزوف واحتقار للمعنى، وتمجيد للفظ». وهذا مناف للحقيقة، فمن يعود إلى كتاب **زمن الشعر** لأدونيس، وإلى المواضع التي يشير إليها الغذامي سيجد أن أدونيس يقول عكس ذلك تماماً: «فالشكل يمحي أمام القصد والهدف»، «فالشكل والمضمون وحدة كل أثر شعري حقيقي»، إلى غير ذلك من أمثلة. والحق أن أدونيس، مع ما يعانيه من تناقضات وتضخم ذات واضح، كما يقول عنه الغذامي فعلاً، معني بمشروع يشبه مشروع الغذامي نفسه سواء في كتابه **الثابت والمتحول** الذي يعد دراسة سابقة لنسقي الثبات والتحول في الثقافة العربية، أو في كتاب **زمن الشعر** نفسه، حيث نقرأ: «فما يزال نظام العلاقات القديم، بكل إرثه، هو الفعال السائد ني الحياة والثقافة العربيتين على السواء.» ومشروعه الحداثوي مشروع يهدف إلى إحداث نقلة جذرية في الثقافة العربية، نقلة قد نتفق أو نختلف حولها، ولكن لا ينبغي تهميشها أو عرضها عرضاً مخلاً لخدمة نسق نحاول إثبات صحته.

مراجع ومصادر:

أدونيس (علي أحمد سعيد). **زمن الشعر**. بيروت: دار العودة، 1972.

أدونيس (علي أحمد سعيد). **الثابت والمتحول**. بيروت: دار العودة، 1974.

شرابي، هشام. **النقد الحضاري للمجتمع العربي في نهاية القرن العشرين**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990.

الغذامي، عبد الله. **النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية**. بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000.

Adorno, Theodor W. "Cultural Criticism and Society." *Prisms*. Trans. Samuel and Shierry Weber. Cambridge, Mass.: The MIT Press, 1983.

Habermas, Jurgen. *The New Conservatism: Cultural Criticism and the Historians' Debate*. Ed. and Trans. Shierry Weber Nicholsen. Cambridge, Mass.: The MIT Press, 1989.

Hartmut Heuermann and Bernd-Peter Lange, eds. *Contemporaries in Cultural Criticism*. Frankfurt Am Main: Peter Lang, 1991.

Lange, Bernd-Peter, ed. *Classics in Cultural Criticism*. Vol. 1. Frankfurt am Main: Peter Lang, 1990.

Leitch, Vincent B. *Cultural Criticism: Literary Theory, Poststructuralism*. New York: Columbia University Press, 1992.

White, Hayden. *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism*. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1978.